طريق ركب الحج الشنقيطي من خلال رحلة الحاج البشير بن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي المتوفى سنة ١٢١٤هـ/١٨٠٠م

الدكتور عمرو عبد العزيز منير*
الدكتور عبد الرحمن بن محمد بعثمان**

الملخص

تحاول هذه الورقة البحثية استجلاء أحد أهم طرق الحج الشنقيطية، التي ظلت إلى وقت قريب غير معروفة التفاصيل، رغم أنها من أهم الطرق الرئيسية المألوفة لدى الشناقطة، حيث إننا كنا نعدم أي نص رحلي يتناولها بدقة، وتعد رحلة الحاج البشير البرتلي الولاتي الشهيرة بالرحلة الحجازية من أتوات إلى الحرمين ، من أندر النصوص التي تناولت هذا الطريق، حيث أنه ابتدأها في أواخر صفر ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩م ليعود منها في مستهل صفر ١٢٠٥هـ /1790م عبر طريق طويل وصعب، انطلاقا من ولاتة تمت إلى توات عبر أزواد وصحراء تنزروفت، ومنها إلى صحراء ليبيا، فمصر، وصولا إلى الحرمين ، واصفا بكثير من الدقة المسالك، مبرزا سهلها و وعرها وموارد المياه عذبها وملحها والقرى التي مر بها الركب، مركزا على الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للتجمعات البشرية المستقرة على جوانب طريق الركب، ورغم أن هذه الرحلة ليست بذلك الغنى العلمي والأسلوبي، الذي نشاهده في رحلات المغاربة كالعياشي والعبدري وغيرهما، خاصة في مايتعلق برصد الحراك العلمي بمحطات الركب، إلا إن معلوماته شكلت مجالا للتفرد في المسار والمنهج.

Abstract

This paper is trying to untangle one of the most important pilgrimage routes Aelchenqaitih which has been until recently unknown details, although it is one of the most important main roads familiar to Aelchenaqth, where we were no shortage of any text my direction addressed accurately, and is famous Alhaji Bashir Albertla Alolaty trip Hijazi trip from Otwat to the Holy of the rarest texts that dealt with this way since it was started in the late Safar 1204 AH to return them at the start of zero in 1205 e through a long and difficult road from his governors were to Touat through Azawad desert Tnzerouft and from there to the desert of Libya, Egypt is down to the Holy, describing With so much precision tract highlighting facilitated and Aaraa and water resources tortured her and Mlhaa and villages experienced by the knees, focusing on social, economic and political situation of human populations stable on

* جامعة جنوب الوادي جمهورية مصر العربية
** جامعة طاهري محمد بشار الجزائر

aspects of road behind, and despite the fact that this trip is not so scientific richness and stylistic that we see in the Moroccan ayachi and'Abdari trips and others, especially in Maitalq monitor scientific mobility stations knees, but his information formed in the area of the uniqueness of the track and the curriculum.

المقدمة

تحتل الرحلة الحجازية أهمية بالغة في الرصيد التراثي للمغاربة، فقد كانت دأب العديد من الفقهاء والعلماء والأدباء والعامة، الذين يشدون الرحال إلى بلاد الحرمين الشريفين، لأداء فريضة الحج، وزيارة المشاعر المقدسة، ضمن قافلة كبيرة تسمى ب" ركب الحج وكثيرا ما كان هؤلاء يدونون مشاهداتهم عبر طريق ذلك الطريق الطويل الوعر والشاق. وقد مثلت هذه الكتابات خزانا معرفيا، يتمكن من خلاله الباحث من استجلاء الكثير من الغوامض، خاصة فيما يتعلق بمعالم الطريق الجغرافية، وكذا التأريخ للجماعات البشرية المستقرة على جوانب هذا الطريق، من المنطلق إلى نقطة الوصول إلى بلاد الحرمين الشريفين، ثم طريق العودة.

تعتبر فريضة الحج في الإسلام من أهم الدوافع، التي دفعت آلاف الحجاج الموريتانيين للسفر كل سنة إلى الديار المقدسة، لتأدية هذه الفريضة، متحدين كل المصاعب والأخطار، عبر مسالك الصحراء الوعرة. وكان من عادتهم الذهاب في جماعات ضمن ركب، ينطلق من حواضر البلاد إلى الديار المقدسة ، مرورا بفاس في المغرب، وتوات في الجزائر، ويؤكد ذلك ما أورده البرتلي صاحب "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" في معرض حديثه عن الحاج أحمد بن الحاج الأمين الولاتي، الذي ترأس ركب الحجاج من ولاتة إلى توات

إن أقدم رحلة حجازية مدونة خرجت من بلاد شنقيط، هي رحلة الحاج البشير البرتلي الولاتي، سنة ١٢٠٤هـ /١٧٨٩م، وكان هذا المصنف إلى عهد قريب في حكم المفقود، ولم يعرف عنه إلا ما أشار إليه الذين ترجموا لمؤلف الحاج البشير البرتلي الولاتي، من أن له رحلة حجازية، وعلى رأسهم ابن عمه، صاحب فتح الشكور. وكانت أخبار النسخة التي تقاطرت إلى آذان المهتمين، تؤكد على احتمال وجود النسخة في إحدى مكتبات مدينة الزقازيق بجمهورية مصر العربية، لكن لم يتوصل أحد منهم إلى الحصول عليها وتحقيقها، غير أن بحثا مضنيا قام به الدكتور عمرو عبد العزيز منير إلى العثور عليها، وتحقيقها ضمن عمل مشترك مع الدكتور عبد الرحمن بن محمد بعثمان من الجزائر .

إن هذا النص النادر، يعد من أجل ما ألف في فن الرحلة المغاربية عموما ، والشنقيطية خصوصا، وقد تم بحمده تعالى إنقاذه من حكم الفقد وتحقيقه وجعله في متناول الباحثين، وستنغتنم سانحة هذا المؤتمر لتعريف الباحثين بهذا النص والطريق الحجي، قبل تيسير طبعه بحول الله .

التعريف بمؤلف المخطوط

هو الحاج البشير بن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي المتوفى سنة ١٢١٤هـ/١٨٠٠م، وصفه صاحب فتح الشكور، بأنه كان رحمه الله تعالى محبا للنبي صلى الله عليه وسلم، مشتاقا ، ملازما لقراءة قصائد مدحه، ويطرب عنده غاية الطرب، ويهتز له ويحبه ويكثر منه،

حتى سمي عند بعض أهل التل بالمداح، خبيرا بضروب القصائد العشرينيات وتخميسها والهمزية وغير ذلك، ابن الطالب الصغير" بالصالح المداح لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

نشا المؤلف في أسرة علمية معروفة في ولاتة باسم بارتيل، فأبوه الحاج أبو بكر بن الفقيه الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي المتوفى سنة ١١٧٩هـ /١٧٦٦م، قال عنه صاحب فتح الشكور: "كان فقيها نحويا صالحا سنيا جمع بين العلم والعمل، موفقا في دينه ودنياه متبعاً للشرع في أقواله وأفعاله، ذا سمت حسن ووقار، بيته بيت علم وصلاح ، حسن الدراية جيد الفهم والنظر، فاذا سئل عن مسألة من عويصات المسائل المشكلات فتحها وسهلها "[١]. أخذ العلم عن جملة صالحة من علماء عصره، حيث درس القراءات عن شيخه عمر بن أحمد الأمين بن الطالب الحبيب[٢]، وألفية ابن مالك عن الشيخ سيدي منيرة بن حبيب الله التشمشاوي[٣]، وأخذ ألفية ابن مالك عن شيخه محمد بن أب المزمري التواتي[٤]، تصدر للتدريس في بلدته ولاتة فدرس الرسالة ومختصر خليل وألفية ابن مالك ولامية الأفعال، حج عام ١١٥٧هـ /١٧٤٥م ، وأتى بخزانة كتب نفيسة، وتوفي سنة ١١٧٩هـ /١٧٦٦م [٥].

أما جده فهو الطالب محمد بن عمر الخطاط بن محمد نض بن الطالب جبريل بن يحى بن علي بن إبراهيم بن تكدنض بن عي بن إدريس بن عيسى بن أدغوغ بن ركرك الأنصاري البرتلي الولاتي المالكي، كان رحمه الله تعالى أستاذا فاضلا جليلا عالما فقيها متفننا في علوم الدين والمنطق والعروض، أخذ علوم أصول الدين عن والده[٦]، والفرائض عن الحاج أحمد بن أند عبد الله الولاتي[٧]، والقاضي عبد الله بن أبي بكر الولاتي[٨]، والحاج أبي بكر بن الحاج عيسى الغلاوي[٩]، وأخذ المنطق

١- البرتلي، فتح الشكور،تحقيق: عبد الودود ولد عبد الله، بيروت: دار نجيويه، ٢٠١٠، ص ١٤٣-١٤٤.

٢- الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الحرشي ت ١١٦٦هـ/١٧٥٣م : فتح الشكور ، ص١٢٣، وأيضا النحوي،الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧، ص٥١٩

٣- الطالب سيدي منيره بن حبيب الله التشمشاوي الاتفقي المتوفى سنة ١١٦٢أو ١١٦٣هـ /١٧٤٩ أو ١٧٥٠ م ، نحوي ولغوي، فقيه أصولي، له: حبب الدلاصة على الخلاصة . راجع: فتح الشكور، ٢٢٩.

٤- محمد بن أب المزمري التواتي: نحوي ولغوي وعروضي من كبار فقهاء توات توفي سنة ١١٦٠هـ له : العديد من المؤلفات والمنظومات في العروض والفقه منع العبقري في نظم سهو الاخضري، وله أيضا بحر شعر سماه المضطرب راجع: جعفري أحمد، محمدبن اب المزمري، حياته وآثاره، ص ٥٥ ومابعدها

٥- البرتلي ، فتح الشكور ١٤٥.

٦- البرتلي، فتح الشكور، ص٢٣٠.

٧- الحاج أحمد بن أند عبد الله بن علي بن الشيخ الولاتي المحجوبي المتوفى ١١٤٠هـ /١٧٢٧م من علماء ولاتة ومن بيت علم وسيادة، له عقيدة منظومة في علم الكلام ونظما في المناسك وتأليفا في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، توفي في ٩ ربيع الثاني سنة ١١٤٠هـ ./١٧٢٧م . راجع: فتح الشكور صص ٨٥-٨٦.

٨- عبد الله بن أبي بكر بن علي الولاتي، الفقيه النحوي القاضي له : فتاوى مفيدة وقصيدة لامية في معاني الحروف وشرح عليها توفي سنة ١١٢٢هـ/١٧١١. راجع: فتح الشكور: ٢٨٨.

٩- الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الغلاوي المتوفى ١١٤٦هـ /١٧٣٤م كان من صدور العلماء قاضيا عدلا مسددا في احكامه صليبا في الحق قائما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أخذ عن جملة من العلماء منهم الحاج عثمان المجاور وعبد الله محمدبن أبي بكر الغلاوي وسيدي محمد بن المختار بن الأعمش العلوي وغيرهم . راجع : فتح الشكور صص ١٤٠-١٤١.

والعروض عن سيدي محمد بن موسى بن أيجل الزيدي[١٠]، وعلم الحساب عن التقداسي، وأخذ سند الطريقة الصوفية الشاذلية عن شيخه سيدي أحمد التواتي[١١]، وله مقدمة في التوحيد سماه " جوهر الإرشاد" ، وله قصيد نقل الهمز ونظم في أحكام الحيض، وشرح عليها، وله أجوبة في الفقه[١٢].

وجد أبيه العلامة عمر الملقب بالخطاط بن محمد نض بن جبريل بن يحى بن علي بن إبراهيم بن تكدنض بن علي بن علي بن إدريس بن عيسى بن ادغوغ بن ركراك الأنصاري البر تلي ولد سنة ١٠٢٨هـ- ١٦١٩م بولاتة، لقب بالخطاط لحسن خطه، كان رحمه الله فاضلا جليلا من مشاهير علماء الكلام مولعا بجمع الكتب، موصوفا بالصلاح سلامة الباطن والتقوى والزهد، توفي رحمه الله يوم الأحد ١٤ذي القعدة ١١٠٧هـ /١٦٩٦م عن عمر ناهز ٨٩سنة[١٣].

وعليه، فالمؤلف سليل أحد أجل البيوتات العلمية في مدينة ولاتة، غير أن تقدم المصادر المتاحة الشيء الكثير عن جوانب حياته، سوى ما أفصح أورده صاحب فتح الشكور، من أنه أخذ الشفاء بالتعريف بحقوق المصطفى عن الفقيه المحدث محمد الأمين بن الطالب سيدي أحمد السوقي، وأجازه به، وأخذ علم السر عن الفقيه عمر بن حمد عغ الفلاني السيوبي.

حج المؤلف عام ١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م من وله فيها تأليفا ذكر فيه منازل ركب حجه من بلاد ولاتة مرورا بتوات إلى بلد الحرمين الشريفين، ولقي في رحلته العلماء والصالحين، واستجاز بعضهم فأجازوه، ومنهم العلامة محمد بن محمد الزبيدي الحسيني المعروف بالشريف المرتضى الذي التقاه في مصر وأجازه.

توفي رحمه الله ليلة الخميس ١١من رمضان سنة ١٢١٤هالموافق:٦ فبراير ١٨٠٠م .

وصف النسخة

– إن النسخة المستعملة في التحقيق، هي نسخة مصورة عثر عليها الدكتور عمرو عبد العزيز منير، ضمن مجموعة مخطوطات، كانت في الأصل ملكا لجده بالزقازيق، رمزها ١٥١٦ /٦٥٨٠

– وحالة المخطوطة جيدة قليلة الخروم، غير أنها تحتاج إلى ترميم، كتب بخط مغربي رائق ومقروء، بحبر أسود، وكتبت بعض العبارات ذات الدلالة بالبحر الأحمر ، كسطور الابتداء وفصل الخطاب " أما بعد " إضافة إلى بعض الرموز المحيلة إلى الزيادات والاستدراكات والتصحيحات الموجودة في الطرر، والمخطوط قليل الأخطاء، وهو ما يفسره قلة الطرر والاستدراكات والتصحيحات؛ مما يعطينا إيحاءات، تؤكد ما ذكرنا سابقا، أنها مقابلة بنسخة ،قد تكون التي كتبها المؤلف بنفسه.

– يقع المخطوط في ٣٠ ورقة مقاسه ١١/١٦سم مكتوب بخط مغربي غليظ، وواضح عموما، لكن بعض أوراقه بها عبارات صعبة القراءة نتيجة الخروم التي تغشاها من حين لآخر، لكن الأمر ليس

١٠- محمد بن موسى بن أيجل الزيدي التيشيتي المتوفى ١١١٧هـ ١٧٠٦م ، الفيه النحوي اللغوي له في الفقه نظم مسائل بن جماعة في البيوع وله في النحو أوراقه المشهورة المسماة " كشف النقاب في قواعد الإعراب وشرحها، وله في المنطق كتاب فتق الحجر المغلق في أصول وفصول المنطق . راجع فتح الشكور ١٩٤-١٩٥.

١١- سيدي احمد بن محمد بن عمر التواتي المتوفى بتشيت ١١٣٨هـ /١٧٢٦م أحد المتصوفة العارفين بالله راجع فتح الشكور صص ٨٣-٨٤.

١٢- البرتلي، فتح الشكور ، ص ٢٣٣

١٣- البرتلي، فتح الشكور، ص ٣٢٤-٣٢٥

بمعضل، ولم يؤثر على قوام النص، أما مسطرة النص فهي ٨ كلمات في المتوسط، بينما يبلغ متوسط عدد أسطر الورقة الواحدة ٢١ سطرا، ويظهر من خلال التعقيبات أنه مخطوط ،كامل مرقم ترقيما تسلسليا بأرقام هندية تعلو جميع ورقاته، وتبدو من وضع مالك المخطوط، وليس الناسخ .

– المخطوط خال تماما من التمليكات أو العواري، التي قد تؤكد حركة هذا الكتاب من يد إلى أخرى ،

الناسخ : الناسخ هو: أعمر بن سيدي محمد بن الحسين بن البكر الإيدلبي الجكني الولاتي المتوفى ١٢٥٦هـ ، وعمه وسمية: أعمر بن الحسين بن محمد البكر توفي ١٢١٦، وهو فقيه ومؤرخ من قبيلة إديبلبة. وأخوه الحبيب بن سيدي محمد توفي ١٢٢٥هـ.والده الفقيه الصالح التقي سيدي محمد بن سيدي أحمد بن الحسين بن محمد البكر من قبيلة إديلبة، توفي يوم عيد الأضحى سنة ١٢١٧هـ موافق: ٣ أبريل ١٨٠٣[١٤]

قال عنه ابن حامد : السيد النبيه التقي النقي الشاب الذكي النحوي اللغوي المحدث الحبيب بن سيدي محمد بن سيدي احمد الحسين بن محمد البكر توفي لتسع بقين من شوال ١٢٢٥هـ الموافق: ١٩–٢٠ نوفمبر ١٨١٠، وهو شقيق الناسخ[١٥]

تشير معلومات الورقة الأخيرة من المخطوط، أنه من نسخ السيد أعمر بن سيدي محمد بن سيدي أحمد بن الحسين، الذي انتهى من نسخها كما أورد يوم الخميس ١٨ ربيع الثاني١٢١٩هـ ٢٦ جويلية (يوليو)١٨٠٤ م، أي أن النسخة حديثة عهد بالأصل، إذ لا يفصلهما إلا ١٢ سنة فقط، إذا افترضنا أن المؤلف قام بتبييض نص الرحلة عقب عودته من الحج، والنسخة المعدة للتحقيق تبدو مقابلة بنسخة أخرى، قد تكون هي النسخة التي بخط المؤلف، وهذا ما يظهر في الطرة (الجانب الأيسر) للورقة الأخيرة، حيث كتب الناسخ عبارة " مقابلة على النسخة التي كتبت منها ".

– لغة الناسخ على ما يبدو سليمة، سوى من بعض الأخطاء اللغوية، كطغيان بعض عبارة اللسان الدارج كاستعمال لفظ "غاية " للدلالة على لفظ "كثير ا"، وكذا الاستعمال الفاحش للغة " أكلوني البراغيث "، وهي لغة مستثقلة في اللسان العربي، رغم نسبتها إلى قبائل طئ، و أزد شنوءة، وبني الحارث بن كعب.

تاريخ تأليف الرحلة

لم يقدم لنا المؤلف تاريخا محددا لتأليف الرحلة، إذ إننا لم نجد أية إشارة لها في متن النسختين، سواء في المقدمة أو الخاتمة، وهذا الأمر يجعلنا نضع جملة احتمالات تقريبة لمعرفة تاريخ تأليف الرحلة المفترض، حيث إننا يمكن أن نطرح جملة من التساؤلات، حول ما إن كان المؤلف يدون مشاهداته على طول مسار الرحلة في مسودات بيضها حين رجوعه إلى موطنه، أم أنه اعتمد على ذاكرته في استحضار المسار، الذي قطعه خلال الرحلة بكل تعقيداته التضاريسية وازدحام أحداثه. والحقيقة أن

---

١٤. ابن حامد ، المختار ، حوادث السنين ، تحقيق : سيدي أحمد ولد محمد سالم ، ٢٧٨

١٥. نفسه، ص ٣١٠

القراءة المتأنية للرحلة، تجعلنا نسارع إلى الميل إلى الرأي الأول، نظرا للعديد من الأمور التي يمكن حصرها في:

إن كثرة التواريخ في الرحلة بدأ من انطلاقها من ولاتة، وصولها إلى الحرم المكي ثم المدني إلى غاية العودة إلى الموطن، تجعلنا نستبعد احتمال كتابة كل هذه التواريخ ، وبهذه الدقة حين العود إلى الموطن ولاتة، فالأكيد أن الرجل كان يدون يومياته في الرحلة بكل دقة .

إن الوصف الدقيق للمنازل والمشاهد والتشكيلات التضاريسية خلال الرحلة، ودقة وصف الصعوبات التي كان يعانيها الركب خلال مسار الرحلة، يشير بدلالة واضحة على الحضور الذهني للمؤلف، الذي أظهر قدرة فائقة على الوصف في شتى مراحل الرحلة، ورغم أن أحداث الرحلة ليست بغزارة الرحلات المغاربية الأخرى، كرحلة الولاتي أو العياشي والحضيكي، إلا إن المؤلف حاول بقدر الطاقة أن يصف ما كان يدور حوله من أحداث، خاصة في مسالة استقبال الحجيج من طرف سكان كل مدينة يمرون بها، والمشاهد التي عاينها، يظهر لنا أن المعلومات كانت تدون في حينها أو في فترة قريبة من حدوثها.

ومن ثم، فإننا نقدر أن الرحلة دونت في الطريق من ولاتة، بلد المؤلف إلى الحرمين، ثم العودة إلى ولاتة في الفترة الممتدة ما بين (صفر ١٢٠٤هـ /١٧٨٩م إلى صفر ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩٠م). ويحتمل أن المؤلف قام بتبييضها حين عودته، واستقراره النهائي في ولاتة، غير أنه لم يتأس بالمؤلفين، الذين عادة ما يضعون تاريخ الانتهاء من التأليف أو التبييض في حرد متن النص، جاءت الإشارة مباشرة بعد انتهاء متن الرحلة إلى اسم الناسخ وتاريخ. كملت الرحلة المباركة بحمد الله تعالى، وحسن عونه على يد كاتبها لنفسه، ثم لمن شاء الله لبعده أعمر بن سيدي محمد بن سيد أحمد بن الحسين رحمهم الله، آمين بعد عصر الخميس لثمانية عشر خلت من ربيع الثاني عام تسعة عشر ومائتين وألف. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين" .

مسار الرحلة

ابتدأ الرحالة البرتلي رحلته الحجازية بأسطر الافتتاح حمد الله خلالها وأثنى عليه، وثناها بالتصلية على الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ثم انتقل إلى بيان الهدف من الرحلة ومسارها، حيث حدد مسارها من بلاد توات إلى الحرمين الشريفين، متعرضا إلى مختلف المسالك التي سلكها ركبه متعرضا أيضا إلى تضاريسها، واصفا ووعورتها وسهولتها، ودرجات أمنها وخوفها، ومنابع مياهه حلوة كانت أم ملحة، وذكر المزارات التي زارها الركب، وغيرها من الأحداث التي ميزت الرحلة.

المرحلة الأولى : الطريق من ولاتة وصولا الى أ زواد:

الخروج من ولاتة وبداية الرحلة :

خرج ركب البرتلي من ولاتة يو م ٢٥ صفر سنة ١٢٠٤ هـ الموافق: ١٤ نوفمبر ١٧٨٩، ضمن ركب حج، يضمن مجموعة من كبراء مدينة ولاتة ومقدميهم، ورغم أن البرتلي لم يعطنا تفاصيل عن أصحاب الركب إلا إننا نطالع في كتاب حوادث السنين لابن حامد، نقلا عن كتاب تاريخ الايدلبي، أن هذا الركب كان متكوناً من مجوعة من الأعيان منهم : حج الشريف مولاي عبد الله بن سيدي محمد بن مولاي صالح الحسني، والحاج الطالب صالح بن عبد الله بن الطالب أبي بكر الايدبلي الزحافي

والحاج البشير بن الحاج أبي بكر البرتلي، وهو المؤلف والحاج محمد بن عبد الرحمن البلبلي بن أعمر بن الوافي المحضري، والحاج المختار بن محمد خو اللادمي، والحاج محمد الملقب بالمين بن عبد الرحمن العلوشي، وخرجوا من قريتهم ولاتة المحروسة، إن شاء الله، يوم الجمعة في الخامس والعشرين من صفر الخير[١٦]، وانطلق الركب من ولاتة، وصولا إلى منطقة أزواد بشمال مالي حاليا، غير أن المؤلف آثر عدم إخبارنا بتفاصيل خط السير، محتجا بأن الطريق مألوف لدى أهل بلده، فلم يربدا من إعادة الحديث عنها، فحرمنا بذلك من تفاصيل مهمة حول هذا الجزء من مسار ركب الحاج الولاتي، وعلى العموم وصل الركب إلى أزواد بعد رحلة عدها المؤلف بعدد الليالي، فكانت أربع عشرة ليلة، فكانت أول قرى أزواد هي بوجبيهة، حيث مكث فيها الركب أربعا وعشرون ليلة، ومنها انطلق المؤلف ضمن قافلة ألى مدينة تنبكتو، إحدى كبرى حواضر الشمال المالي، لزيارة قبور الصالحين بها، ولقاء علمائها. حيث زار المؤلف مجموعة من مزاراتها ومساجدها، ليعود بعدها إلى بوجبيهة، فمكث بها ثلاثا وعشرين ليلة أخرى، استجاز خلالها الشيخ محمد الامين بن أحمد الكلسوكي الجبيهي في كتاب الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى، فأجازه[١٧].

في ١٣ جمادى الأولى ١٢٠٤هـ الموفق ٠١ يناير ١٧٩٠ م خرج الركب من بوجبيهة إلى قرية المأمون ، فمكث أربع عشرة ليلة، ومنها إلى قرية المبروك في ٢٩ جمادى الاولى ١٢٠٤ الموافق ٢٩: يناير ١٧٩٠م.[١٨]

المرحلة الثانية : الطريق من المبروك إلى توات

تنزروفت الصحراء الموحشة

في يوم الاثنين ٠٧ جمادي الآخرة١٢٠٤ هـ الموافق ٢٢فبراير ١٧٩٠م ، وبعد قضاء خمس ليال قي بلدة المبروك، اتجه الركب شمال إلى منطقة توات، حيث مر بطريق سالكة، معروفة لدى الأركاب،معلومة الآبار والمحطات، حيث مر الركب ببئر أشوراط وبئر تنصضير، وهو أخر المناهل قبل الدخول إلى صحراء تنزرفت في الصحراء الجزائرية. وتعد رحلة البرتلي المصدر العربي الوحيد، الذي تناول وصف هذه الصحراء، لا سيما معاناة الركب بعد دخوله اليها، وهذه الصحراء سماها الفرنسيون صحراء العطش، لانعدام الحياة فيها ومنابع المياه، وهي من أخطر المراحل في الطريق من توات إلى منطقة أزواد في شمال مالي، ووصف البرتلي لهذه الصحراء على بسطته وسطحيته أحيانا، إلا إنه يظل النص الوحيد الذي وصلنا لوصف هذه المفازة، فتنزروفت حسب المؤلف مفازة عظيمة، لا تسلكها القوافل إلا نادرا، لقلة موارد الماء بها، خصوصا في فصل الصيف الحار، أرضها حصوية خشنة مستوية، لا شجر فيها، ولا نبات، ولا حيوان،وقطع الركب هذه المرحلة الصعبة في مدة أسبوع كامل،

١٦- ابن حامد، حوادث السنين، ص ٢٢٢-٢٢٣

١٧البرتلي ، رحلته، ورقة ٠٢و

١٨نفسه، الورقة ٠٢ و

اتجاه أول منبع مائي عذب مشرف على بلاد توات وهو بئر والن أو أيوالان، حيث باتوا عنده مدة ثلاثة أيام، اغتنم المؤلف الفرصة لزيارة مزار هناك للشريف مولاي زيدان دفين البئر.[١٩]

الدخول إلى زواية الشيخ أبي نعامة

بعد قضاء ثلاثة أيام عند بئر والن، والاستراحة من وعثاء قطع مفازة تنزروفت، دخل الركب بلاد توات من بوابة قرى أقبلي، حيث زاوية الشيخ أبي نعامة مجمع ركب الحج، حيث تجتمع فيها الركبان القادمان من توات والتكرور تحت لواء واحد وهو لواء شيخ الركب النبوي الشيخ أبي نعامة، وبعد رحلة قصير دامت أربع ليال حل الركب بزاوية أبي نعامة، فاستقبلهم شيخ الزاوية السيد الحبيب بن سيدي محمد، احسن استقبال واستراح الركب في الزاوية خمس ليال، متجها إلى مدينة عين صالح[٢٠].

خرج الركب من أقبلي يوم الاثنين ٥رجب ١٢٠٤، متجها إلى مدينة عين صالح، التي وصلها بعد يومين المسير، فمكث فيها الركب خمس ليال كاملة، ووصف أهلها بالكرم وخدمة الحجيج، حيث استضافتهم عائلة أولاد سيدي باب، الذين عدهم من رؤساء تلك البلاد. [٢١]

المر حلة الثالثة الطريق من عين صالح إلى قرى فزان

خرج الركب من عين صالح يوم الاثنين ١٢ رجب ١٢٠٤ هـ، وسار عبر الطريق المعهودة مدة، ثم انحرف عنها لجهة اليمين لتحاشي بعض أعراب المنطقة، الذين كانوا في أغلب ظنه من قبيلة الشعانبة، بعد مرور أبعة أيام من المسير في فلاة من الأرض، قليلة منابع المياه، وصل الركب الى قرى فزان[٢٢].

قرية أوباري

أول قرية من قرى فزان، نزل بها الركب، هي قرية أوباري، حيث وصف المؤلف أهلها بالكرم، فقد ضيفوا الركب ضيافة حسنة بالتمر والقمح والشعير رغم انشغالهم بتقديم العزاء.

قرية جرمة: وهي ثاني قرية من قرى فزان سماها " جرم"،تحدث المؤلف عن ضيافة أهلها، لكنه لم يقدم لنا وصفا لها، ربما لعدم مكث الركب فيها كثيرا، حيث انتقل منها إلى قرية أخرى، تسمى تكركيب، حيث بات الركب في ضيافة أهلها، وانطلق بعدها في فضاء، متحاشيا الدخول في بعض القرى الصغيرة، لكنهم اختاروا الفضاء المليء بالأعشاب لتقتات الابل[٢٣].

قرية أتساوة :

نزل الركب في ضيافة قرية أتساوة، وهي أعظم قرى فزان، والظاهر أن المؤلف أعجب بالقرية، فراح يصفها وصفا حسنا، حيث تحدث عن كرم أهلها، وحسن وجوههم، ومحبتهم الكبيرة للحجاج، حيث قال إنه لم ير في طريق الحج أناساً في الحرص على طلب البركة من الحجيج والدعاء والتواضع، كما

١٩البرتلي، رحلته، ورقة ٣و

٢٠نفسه، ورقة ٣ ظ

٢١نفسه، الورقة ٤و

٢٢نفسه، ٤ظ

٢٣نفسه، ٥ و

أعجب أيضا بمستواهم العلمي الكبير، حيث يسالون عن المسائل الفقهية بكل أدب، كما أن سلطان البلد يخرج شخصيا للقاء الحجاج والسلام عليهم وطلب الدعاء منهم ، وزار المؤلف خلا مقام الركب في أتساوة الكثير من المزارات، من أهمها قبر الحاج أحمد بن الحاج الأمين التواتي، وهو شيخ ركب ولاتة، كام زار قبرا وصفه وصفه وصفا دقيقا، قال عنه أنه قبر نبئ من أنبياء الله، كما زار بعض العلماء والصالحين بالبلدة، كالشيخ يحى بن محمد بن يحى [٢٤].

قرية مرزق:

تعد قرية مرزق من أهم قرى فزان، بل حاضرتها السياسية والاقتصادية، حيث مقر حكم أولاد محمد سلاطين فزان خلال هذه الفترة، وتتميز فزان بتقاليد راسخة في استقبال الحجيج، حيث تنظم لذلك المهرجانات بحضور السلطان، الذي يقيم حفل استقبال بهيج على شرف الحجاج، حيث ينصب له منصة،وتقام بين يديه أنواع الرقصات الشعبية واستعراضات الخيول والبارود، وبعد الاحتفال يتقدم الحجاج للسلام على السلطان، لينتقلوا بعدها إلى مسجد البلدة في ضيافة السلطان.[٢٥]

قرية أتراغن :

بعد قضاء حوالي تسع ليال في فزان، تحرك الركب نحو قرية أتراغن، وهي من أجود قرى فزان تمرا حيث يتزود فيها الحاج بالتمر، غير أن المؤلف لم يفصل في طريقة الشراء، هل هي مقايضة أو توريقا، وعلى العموم نزل الركب في زاوية الشيخ محمد بن تامر، الذي استقبلهم وأكرم وفادتهم، واغتنم المؤلف الفرصة لزيارة قبر الوالي الصالح سيدي محمد بن أجميل [٢٦].

قرية زويلة:

بات الركب حميرة في الفاتح من رمضان سنة ١٢٠٤، منتقلا في اليوم الموالي إلى زويلة، التي سماها قرية الشرفاء، وهي قاعدة فزان القديمة وأحدى أهم القرى بعد مرزق، غير أنه لم يوافينا بمعلومات وافية عندها، سوى أنها تخضع لكبيرها الشريف هند، وأن بها قباباً أخبر المؤلف أنها للصحابة الذين فتحوا البلاد، غير أنه لم يخبرنا باسمائهم. وبعد مكث ليلتين أخذ الركب طريقه في طريق كثير المنابع والأبار كعيون المرابط سيدي أبو الصلاح وأم الافاعي [٢٧] .

قرية تمسة:

بعد مسير نصف يوماً تقريبا وصل الركب إلى قرية تمسة، وهي أقصى قرى فزان، يشتري فيها الحجيج التمر للإبل و يتخيرون الطريق التي يسلكونها، هل يسلكون طريق جبال الهروج الأبيض أم الأسود؛ والأمر يتعلق هنا بدرجة أمان الطريق واحتوائها على الماء، التي عادة ما تتجمع بفعل هطول المطر، حيث بلغهم أن الماء موجود به، فاتخذوا طريق الهاروج متجهين يسارا، رغم أن المؤلف تحدث عن

٢٤البرتلي، رحلته ، الورقة ٥ ظ

٢٥نفسه، الورقة ٦ ظ

٢٦البرتلي، رحلته الورقة٧و

٢٧نفسه، الورقة٨و

طريق ذات اليمين التي تبدو أكثر أمانا من الطريق التي أخذها الركب، لكن الركب اجتاز الطريق الكثير المناهل والمنابع المياه والسواقي والأبار، باتجاه قرية زلة كان المؤلف يحدد عذبها وملحها[٢٨].

جبال الهروج الوعرة

جبال الهاروج، سلسلة جبال بركانية موحشة، تمتد على مساحة واسعة بين فزان وطرابلس، شكل التلال مخروطي غير كامل والتفاوت بين قممها ليس كبيرا، وترتفع بعضها ما بين ٨و١٢ قدما، وجبال الهاروج تنقسم إلى قسمين جبال، بازلتية سوداء اللون، تسمى الهاروج الأسود، وتلال كلسية بيضاء اللون، تسمى الهاروج الأبيض. ويعد المؤلف هذه المرحلة من أشق المراحل، وأعسرها على الركب، حيث يتوجب على أخذ علف الإبل من تمسة، حيث دخل الركب في وهاد ومنخفضات وارتفاعات ومنعطفات وعرة في أرض تكسوها الحجارة؛ مما يجعل المرور بها شاقاً، وخلال المرور بطريق جبال الهاروج الأسود تزود الركب من المياة المتجمعة بشكل برك كوادي أهلال ووادي أم البريوف ووادي أم أغريس، انتهاء إلى وادي أشيكار، وهو واد كثير الأشجار والحشائش الملائمة لرعي الإبل، ومن وادي أشيكار بدأت التضاريس في الاعتدال، وصولا إلى منهل يسمى عين زلطن المالحة التي رغم ملوحتها تزود منها الركب لعدم وجود الماء بينها وبين قرية وجلة[٢٩] .

قرية وجلة:

سار الركب في طريق الهاروج مدة ١٢ يوما كاملة، وصولا إلى قرية وجلة، وهي قرية كثيرة النخل والأشجار، ومحطة مهمة من محطات ركاب الحج، ورغم ذلك لم يصف لنا المؤلف المدينة، ولا نخيلها، ولا طبائع أهلها، بل إنشغل، بزيارة المساجد وقبور الصلحاء المدفونين بوجلة، مثل الصحابي الفاتح عبد الله بن سرح، والإمام الأوجلي وخلوة الإمام زروق البرنسي، وقبور الشرفاء وأصحاب الفضل، وانضم إلى الركب أناس من وجلة، يريدون الحج ، وخرج الركب من وجلة بعد مبيت ثلاث ليال[٣٠] .

قرية جالو: بعد مسر نصف يوم تقريبا، حل الركب في مدينة جالو ليلة ٢٧ رمضان ١٢٠٤، الموافقة لليلة القدر،حيث ختم الركب القرآن الكريم، لم يحدثنا المؤلف إلا عن كثرة نخيل قرية جالو، رغم أهميتها في طريق الحج والتجارة مع بلاد السودان، لينتقل منها مع انضم إلى الركب من أهل القرية، نحو قرية سيوى آخر محطات الصحراء الليبية من طريق الحج الطويل[٣١].

انطلق الركب نحو قرية سيوى في طريق أقل صعوبة كثير المناهل والكلأ، حيث مر الركب بوادي قطمير، وهو واد كثير الكلأ، قريب الماء عذبه،يؤدي إلى مسلك مرمل كثير الروابي والالتواءات، وبعد مسير يومين حل عيد الفطر المبارك، فاضطر الركب إلى التوقف لأداء شعيرة زكاة الفطر وصلاته، ثم واصل السير في طريق صلبة سوداء كثيرة التعرجات، وصولا إلى منهل ذي عيون ملحة يسمى الطرفاوي، تجاوزها إلى مسلك بين السهولة والوعورة مرملة أحيانا وخشنة مكسوة بالحجارة أحيانا أخرى،

٢٨نفسه، الورقة ٩ و

٢٩نفسه،الورقة ١٠ظ

٣٠البرتلي، رحلته ، الورقة١٠ظ

٣١نفسه،١٠ ظ

وصولاإلى منهل ماؤه مالح هو الكيكيب، إلا إنه أقل ملوحة من منهل الطرفاوي، ثم إلى منهل الغزالية، وهو منهل طيب الماء، فبات الركب عنه ليرتحل صبحا إلى قرية سيوة[٣٢].

قرية سيوة :

توقف الركب في ظاهر سيوة للتزود بالكلأ، لاعتزامه البقاء فيها ثلاثة أيام، ولمخافة الناس على إبلهم من بطش الأعراب، إذا ما أطلقت لترعى في مراعي البلدة، والقرية كما وصفها المؤلف مستقلة عن طرابلس ومصر ولديها نظاما خاصا، حيث يحكمها مجلس من إثني عشر رجلا ، يأمرون رجلا منهم يدعونه الكيلان، فأقام الركب ثلاثة أيام في سيوة ، ولاحظ أن أهلها لا يبالون بالحجاج ولا يستقبلونهم ولا يضيفونهم، كما عهدوا من أهل البلدات السابقة.

خرج أهل الركب من سيوة زوال اليوم الثالث وبات قريبا منها عند عين البقر، ثم ساروا عبر سباخ ومسالك وعرة، ونزلوا بقرية صغيرة تسمى أم الصغير، وهي قرية مالحة الماء، كثيرة النخل، قليلة السكان، يشتركون مع أهل سيوة في عدم اكتراثهم بالحجاج وضيافتهم، فلم يطل به المقام بالقرية، حيث انتقلوا منها سريعا عبر أرض مسبخة إلى عين ماء تسمى أجديد، ومنها إلى وادي كرب، حيث بات الركب عن عين الأرجام، ورعت أبله فيه، وانتقل بعدها إلى وادي إسكاف، الذي يشرف على مسلك جبلي كثير الالتواءات، يفضي إلى مجموعة من الوديان، منها وادي الحديد وأيماجيف وأغرغر وتكرت وأسراس وجبل أقلج ووادي تهدين، وصولا إلى مجموعة هضاب تسمى مزررن، وبات الركب في واد كثير الحشيش يقال له أفر، وقد كان الركب في كل هذه المراحل يختار المبيت عند عيون الماء العذبة ومنابت الكلأ، لتأخذ الإبل بعض الراحة، نظرا لصعوبة الطريق، وكثرة منعرجاتها وصلابتها[٣٣]

مر الركب في طريقه على خيم قبيلة طارقية تسمى إهياون بالغوا في إكرامهم بالذبائح والألبان، وواصل السير عبر طريق وعرة، وباتوا عند عيون المرابط أبي الصلاح لليلتين، ومنها عبر سباخ إلى ماء اليهودية، وهو منهل خبيث الماء، لكنه مشتهر لدى الرحالة نظرا لتسميته الغريبة[٣٤].

المرحلة الرابعة : دخول الركب إلى مصر

دخل الركب أول منازل الحج أرض مصر، وهي قرية كرداسة، التي دخلها الركب عبر وادي الرهبان في ٢٥شوال ١٢٠٤هـ الموافق: ٢٧ يونيو ١٧٨٩م، وسار عبر قرى الريف المصري، وصولا إلى نهر النيل، ليستقلوا السفن للعبور إلى الضفة الأخرى من النهر، وصولا إلى طيلون، حيث بات الركب سبع ليال ليرتحل في أعقاب الركب المصري يوم ٠٢ذي القعدة ١٢٠٤ الموافق :٠٤ جويلية ١٧٨٩، ومر بالحصباء والدار الحمراء، وصولا إلى قرية غجرود، حيث وقف المؤلف على اهتمام العثمانيين بالحجاج،خاصة في ما يتعلق بالسقاية، كبنائهم للأحواض التي تملأ بالمياه العذبة.[٣٥]

المرحلة الخامسة: الطريق من مصر إلى الحجاز

٣٢نفسه،١٢ و

٣٣. نفسه،١٧ ظ

٣٤. البرتلي، رحلته الورقة١٧ ظ

٣٥. نفسه،١٧ظ و١٨و

مر الركب بقرية السويس، ومنها إلىعين النابع، فاجتهد الركب في إعادة حفر بعض عيونها للتزود بالماء ، استعدادا للدخول في وادي التيه والعقبة، وهي أصعب مراحل الدرب كله، نظرا لمسالكها الجبلية الوعرة حتى الوصول إلى قرية بندر العقبة، حيث سار الركب بحذاء الشاطى جنوبا، وصولا إلى قرية ظهر الحمار، وهي قرية طيبة الماء، كثيرة النخل تجاوزها الركب إلى مسلك وعر كثير الجبال، يفضي إلى مغائر نبي الله شعيب، حيث التقى بالركب المصري، ومنها إلى عيون القصب، حيث دعاهم ماؤها العذب إلى المبيت عندها ثم الارتحال إلى ماء المويلح، وهو منتصف الطريق بين مكة ومصر، حيث التقى الركب بالركب المصري، وبهذه المنزلة ترك الركب بعض أمتعته وما هزل من إبله مستودعة لدى أعراب المويلح إلى غاية العودة.[٣٦]

مر الركب في طريقه بآبارالسلطان ثم الأزلم ثم أصطبل عنتر ثم بندر الوجه ومنهل الأكره، وفي كل هذه المراحل مناهل مياهها تتراوح بين العذوبة والملوحة، وصولاً إلى الدركين الذي فسر المؤلف اسمه بمسحته الصوفية المعتادة، حيث قال أن أولياء المشرق يستلمون رعاية الحجيج من أولياء المشرق، وهو أول أعمال الحجاز[٣٧].

الوصول إلى الحجاز:

نزل الركب في بندر الحواء، وهو بندر عظيم ،كثير النخل، ومياهه متوسطة بين الملوحة والعذوبة، حيث التقوا مرة بالركب المصري يتهيأ للرحيل، ثم واصل السير إلى بندر آخر، وهو بندر النبط ثم الخضيرة، وصولا إلى الينبوع أو ينبع في مستهل شهر ذي الحجة حيث رافق الركب الركب المصري، ولم يخف من في الركب لهذه الموافقة، حيث إن استهلال شهر ذي الحجة وافق يوم الخميس؛ مما يعني أن وقفة عرفة ستصادف يوم الجمعة الموافقة لحجة الوداع.[٣٨]

سار الركب ليلته، وصولا إلى بدر، حيث التقوا بالركب المصري والركب الشامي، واغتنم المولف مقام الركب في بدر أول النهار لزيارة شهداء بدر المدفونين هناك وبعض المزارات، كموضع العريش الذي نصب للرسول صلى الله عليه وسلم [٣٩] .

الوصول إلى رابغ وإحرام الركب

واصل الركب سيره من بدر مع الركبين المصري والشامي إلى قاع بزو، ثم الى رابغ، حيث منزل الإحرام، حيث اغتسل من في الركب، ولبسوا إحرامهم للحج المفرد، وساروا إلى قديد ملبين،وقد سبقهم الركب المصري، الذي التقوا به في خليص، ثم عسفان ووادي قاطمة ووادي ميمونة ثم وادي سرف[٤٠].

الدخول إلى مكة وبدأ مناسك الحج:

---

٣٦. نفسه، ١٩ ظ

٣٧نفسه،١٩ظ

٣٨. البرتلي، رحلته الورقة ٢١ و

٣٩نفسه،٢٢و

٤٠نفسه،٢٢و

وصل الركب مكة المكرمة يوم الخميس ٠٨ ذي الحجة الموافق: ٠٨ أوت، حيث دخل المؤلف إلى البيت الحرام، وبدأ في ممارسة شعائر الحج خطوة بخطوة، من طواف، وسعي بين الصفا والمروة، والتوجه إلى منى، ثم إلى عرفات في التاسع من ذي الحجة، ثم التوجه إلى مزدلفة، وثم إلى منى في العاشر من ذي الحجة ورمي جمرة العقبة ونحر الأضاحي والعودة إلى مكة في ذات اليوم لطواف الإفاضة ثم العودة إلى منى في اليوم الحادي عشر ورمي الجمرات. وبعد إتمام المناسك سارع المؤلف إلى زيارة مزارات مكة كغار المرسلات والمكان الذي فدى فيه الله نبيه إسماعيل عليه السلام، وبعد أداء العمرة اشتغل المؤلف ومن معه في الركب بزيارة مشاهد مكة المكرمة، منها المكان الذي ولد في الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف المكان وصفا دقيقا، ثم بيت السيدة خديجة بنت خويلد، حيث جال فيه مبديا كل تفاصيله،كما زار دار أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، والحجر الذي سلم على الرسول . صلى الله عليه وسلم، كما زار قبور أمهات المسلمين، كقبر خديجة رضي الله عنها وقبور الصحابة، كسيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير وأسماء ذات النطاقين وقبور صحابة آخرين لم يتمكن من معرفتهم، كل ذلك كان في مدة سبع عشرة ليلة، قضاها الركب بمكة عقب انتهاء مناسك الحج.

المرحلة السادسة: الطريق من مكة إلى المدينة المنورة

في يوم الخميس ٢٩ ذي الجحة ،١٢٠٤ وبعد طواف الوادع سار الركب إلى المدينة المنورة في أثر الركب المصري، حيث نزل التنعيم ثم وادي فاطمة ثم وادي عسفان في الفتح من محرم ١٢٠٥هـ ثم خليص ثم رابغ وقاع بزو ثم بدر وأجديد وذي الحليفة، وفي ١٢ محرم ١٢٠٥هـ الموافق:١١سبتمبر ١٧٨٩ م، وصل الركب إلى المدينة المنورة، حيث زار المؤلف ومن معه في الركب المسجد النبوي، وسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ووصف المؤلف الروضة الشريفة وأعمدتها بوصف دقيق، ثم أنتقل إلى زيارة قبور الصحابة الكرام، وجدته التي توفيت هناك مجاورة، ومن الصحابة الذين زارهم، إبراهيم ابن النبي صلى الله وعليه وسلم والعباس بن عبد المطلب والسيدة فاطمة الزهراء وعثمان بن عفان وأمهات المؤمنين وغيرهم من الصحابة، كما زار قبر سعد بن معاذ وفاطمة بنت أسد خارج البقيع وقبر السيدة حليمة السعدية وبناتها، رضي الله على الجميع.كما زار قبر الإمام نافع مقرئ القرآن الكريم، وقبور شهدائه كحمزة بن عبد المطلب ومن معه من الشهداء، كعبد الله بن حجش ومصعب بن عمير وشماس بن عثمان، وزار المكان الذي شج فيه النبي صلى الله عليه وسلم،[٤١].

ومن مشاهد المدينة المنورة التي زارها المؤلف، قبر عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول صلى الله عليه وسلم، ودار أنس خادم الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيها البئر الذي توضأ فيه صلى الله علية وسلم ، فغسل منه وشرب منه تأسيا ، كما زار مسجد قباء ومسجد علي كرم الله وجهه وبئر أريس ودلى فيه رجله كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، كما زار المكان المسمى ثنية الوداع،وهو المكان

٤١البرتلي، رحلته، الورقة ٢ ٢و

الذي جلس فيه نساء الأنصار يضرب بالدف فرحا بقدومه صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة، وفي المدينة المنورة فقد الركب رجلين من أهل الفضل تأثر لهما المؤلف هما محمد الكانم من أهل فزان والشيخ محمد بن عبد الرحمن البليلي، فيما اختار الطالب صالح بن عبد الله بن الطالب أبي بكر الايدبلي المجاورة في مدينة رسول الله [٤٢]

المرحلة الرابعة : طريق العودة إلى الديار

في يوم الاثنين ١٧ محرم ١٢٠٥، شرع الركب في الاستعداد للخروج من المدينة المنورة، فهرع المؤلف للمسجد النبوي لصلاة الفجر ووادع النبي صلى الله عليه وسلم وأهل البقيع، في مشاهد غاية في الخشوع، فخرج الركب اتجاه مصر، حيث دخل القاهرة التي كان مر بها على عجل في طريق الذهاب، يوم الخميس ٢٠ محرم ١٢٠٥ هـ فزار مشاهد الصالحين والعلماء كالامام الشافعي وأئمة المالكية ومشاهد الصحابة وآل البيت كالسيدة نفيس والسيدة زينب والسيدة رقية ،رضي الله عنهم، كما زار قبر رابعة العدوية والكثير من الصالحين، واشتمر الركب في المقام بالقاهرة إلى شهر ربيع الثاني، وفي هذه المدة تحصل على الإجازة من الشيخ المرتضى الزبيدي في صحيح البخاري، وكتاب الشفا للقاضي على عادة الحجاج المغاربة، الذين كانوا يمكثون في مصر شهورا لطلب العلم والتجارة[٤٣].

وفي يوم الاثنين ١٣ ربيع الثاني ١٢٠٥ خرج الركب من القاهرة قاصدا كرداسة، وانتظر فيها لأيام الركب من تخلفوا عنه وركب مدينة بنغازي، فلما اجتمعت الركب سار الركب في فاتح جمادى الأولى إلى الاسكندرية حيث زار المؤلف مشاهد المدينة، ومن قبر فيها من الأولياء والصالحين والعلماء كالمرسي والبوصيري وغيرهم، وواصل الركب السير إلى قرية وجلة التي وصلها في ٢٤ جمادى الثاني ١٢٠٥.

وفي الثاني من رجب ١٢٠٥ هـ سار الركب من وجلة إلى فزان، ومنها إلى قرية تمسة ثم بلاد توات مرورا بقصور فزان، حيث دخل الركب مدينة عين صالح في ٢٩ رمضان ١٢٠٥ ثم قرية أقبلي التي وصلها الركب يوم الخميس ٦شوال ١٢٠٥ وبعد خمس ليال من الراحة توجه الركب إلى بلاد أزواد،حيث حل في قرية بوجبيهة يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعدة ١٢٠٤ /٢٦ ، ومنها إلى تنبكت، حيث توقف الركب عند خيام لقبيلة البرابيش، لأداء صلاة عيد الاضحى، ووصل الركب تنبكت يوم ١٣ من ذي الحجة ١٢٠٥هـ ، وبعد مبيت أربع عشرة ليلة خرج الركب نحو ولاتة التي وصلها يوم الأربعاء ١٤ محرم ١٢٠٥ وانتهت الرحلة المباركة.

خصوصيات طريق الحج الموريتاني من خلال الرحلة

البنية التضاريسية

وفي الحقيقة، إننا نفتقد أو نكاد إلى نص رحلة حجازية اتخذت هذا الطريق، رغم ما تحدثنا به المصادر المختلفة عن أهمية هذا الطريق الحج، الذي كان ينطلق من ولاتة نحو مدينة تينبكت، لينكسر شمالا نحو منطقة توات عبر إقليم أزواد حيث يصف مدنها وقراها العامرة كتنبكتو والمبروك وبوجبيهية،

٤٢نفسه، ٢٦ و

٤٣نفسه،٢٩ و

معددا مزاراتها وأضرحتها ورجالاتها الصالحين، كما تتفرد الرحلة بوصف صحراء تنزروفت الموحشة، إذ تقدم لنا مادة جغرافية جزيلة حول هذه المنطقة المجهولة، والتي لم يتطرق إليها الجغرافيون الأول إلا بشكل سطحي وعام، حيث تقدم وصفا دقيقا جدا لهذه المنطقة معددا منازلها واصفا جغرافيتها وتضاريسها معددا آبار المياه فيها عذبها ومالحها، ورغم أن الرحالة البرتلي قد حرمنا من دون وجه قصد من معلومات قد تكون مهمة عن المسافة الفاصلة بين ولاتة من حيث انطلق إلى إقليم أزواد بحجة أن الطريق معروف لدى العام والخاص في زمنه، إلا إنه تحرى دقة كبيرة في وصف ما تلا هذه المرحلة من أزواد إلى توات ومن توات إلى صحراء ليبيا مرورا بقرية أقبلي و مدينة عين صالح، وصولا إلى بلاد فزان، ويزداد هذا الوصف تشويقا ودقة عندما ينكسر الركب صاعدا من توات وعين صالح في الجزائر إلى صحراء فزان بليبيا، حيث يصف هذا الطريق بشيئ من التركيز، خاصة في بيان الاختلافات التضاريسية التي تحدد مدى وعورة وسهولة المسلك، مقدما معلومات جزيلة عن قرى فزان وأهم أعلامها وتحدث عن خصال أهلها وكرمهم واحتفائهم بالحجيج. وعلى نفس المنوال يصف الطريق من صحراء ليبيا إلى مصر، ولو أنه أخر وصفها الدقيق إلى طريق العودة، حيث عدد المنازل والأضرحة والمزارات، مستدركا ما فاته في طريق الذهاب، ومع اقترابه من بدلاد الحرمين واشتعاله شوقا لأداء فريضة الحج، يسهب البرتلي في وصف دقائق المسلك الرابط بين مصر ومكة المكرمة .

صحراء تنزروفت :

تعد رحلة البرتلي المصدر العربي الوحيد الذي وصف صحراء تنزروفت، وهي عبارة عن صحراء شاسعة حصوية بيضاء اللون، جافة قاحلة وسط الصحراء الكبرى، تمتد إلى غاية المناطق الخصبة، وكل طرقها تؤدي إلى طريق يمتد إلى غاية المناطق الخصبة، وكل طرقها تؤدي إلى طريق السودان الغربي وإفريقيا جنوب الصحراء عامة ، يحدها شمالا إقليم توات ومن الغرب عرق شاش، ومن الشرق منطقة الهقار ومنطقة آهنت،ومن الجنوب بلاد الأزواد، وتتميز منطقة تنزروفت بالمناخ الصحراوي الحار صيفا، والبارد شتاء مع شبه انعدام للتساقط وغياب للغطاء النباتي[٤٤].

لقد تطرق البرتلي إلى صعوبة مرحلة تنزروفت، حيث وصفها بالشدة والإيحاش وقلة مظاهر الحياة، في وصف مصاحب بكثير من الدهشة لهول هذه المفازة حيث قال " ودخلنا في مفازة عظيمة الخطر شديدة الحذر، قليل ما تسلكها قافلة إلا ووقع بها ضررٌ من العطش، ولا سيما إن كان في شدة حر الصيف، وما ذلك إلا عدم وجود الماء فيها قطعًا، وأحيانًا عدم وجود النبات فيها للدواب؛ أرض صلبة خشنة غاية منتشرة، وحتى لو رأيت شيئًا أمامك لا تدري أهو جماد أم حيوان أساكن هو أم متحرك أمقبل أم مدبر إلا بعد حين ثم تظهر لك حقيقته، وحتى لو رأيت شيئًا أمامك تحسب إنك تصله بسرعة، فإذا أنت لا تصله إلا بعد جهد، وكأنه يتنحى عنك ليزداد في البعد منك،وما ذاك إلا لتموهها على الماشي فيها مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، لا شجر فيها، ولا نبات كأن السماء اختلط على الأرض يحار فيها منظر الناظر فيها، كل ما نظر إلى جهة من الجهات كلها كالماشي على وجه البحر

٤٤- حوتية محمد الصالح: آل كنته دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ق١٨-١٩م، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨ م، ص ص ٣١٥- ٣١٦ .

ليلاً، وحتى لو أنك رأيت عودًا من نبات قائم أو روثة دابة ملقاة على وجه الأرض، أو حجر صغير تحسب أنه إنسان قائم أو راكب على جمل، وحتى الطيور لا تُرى فيها ولا وحش ولا خشاش أرض، ولا نملة، ولا حيوان ما. وهذا كله مما يفوع السالك بها ويروعه فسبحان من خص ما شاء من أرضه بما شاء، وكيف شاء تسمى : تنزروفت[٤٥]

جبال الهاروج الليبية:

جبال الهاروج، سلسلة جبال بركانية موحشة تمتد على مساحة واسعة بين فزان وطرابلس، شكل التلال مخروطي غير كامل والتفاوت بين قممها ليس كبيرا، وترتفع بعضها ما بين ٨و١٢ قدما، وجبال الهاروج تنقسم إلى قسمين جبال بازلتية سوداء اللون تسمى الهاروج الأسود، وتلال كلسية بيضاء اللون تسمى الهاروج الأبيض تحتوي حفريات متحجرة لحيوانات مائية، وتنتظم جبال الهاروج الأسود والأبيض بشكل متناوب وتتخللها عيون ماء ووديان وبرك تنتج عن أنحسار مياه الإمطار[٤٦]، انطلاقا من قرية تمسة الليبية انطلق الركب الى جبال الهاروج، حيث كان دأب الركاب تخير الطريق سواء من جهة الهاروج الأبيض أو الأسود بحسب توفر المياه، وطريق الهاروج الأسود حسب المؤلف طريق غاية في الصعوبة لكثرة الحجارة والانحدار والارتفاع، لكنها مليئة بالوديان التي كانت توفر كلأ الإبل ومورد للسقيا [٤٧].

جبال وادي إسكاف:

بعد تجاوز قرية أم الصغير سار الركب إلى وادي إسكاف، الذي يشرف على سلسلة جبال شامخات وصفها بأوعار تعد أشد ما رأى في طريقه، حيث كان الركب يلتوي معها شمالا، ويمينا طالبا العبور، وتشرف هذا الجبال أيضا على سلسلة من الروابي الصعب حيث كان الركب يرتقيها وينحدر منها من العصر إلى العشاء [٤٨].

هضبة منقار الطير: هضاب متفاوتة الارتفاع بعضها مستقل عن الآخر وبينهم أرض صلبة مستديرة على واد يسمى وادي تكرت[٤٩].

عقبة أيلة: تعد هذه العقبة من أصعب المراحل على الحجاج حيث قال عنها البرتلي أنها من أصعب مراحل الدرب كله ، ذات مسلك ضيق تحفه الجيال يمينا وشمالا مع الارتفاع والانخفاض، وقال عنها العياشي أنها عقبة كؤود صعبة الصعود والهبوط[٥٠].

المناهل والآبار والعيون

تعد منابع المياه من أهم محددات طريق الحج، فالحجاج بحاجة ماسة للتزود بمياه الشرب والاغتسال وإرواء الإبل، فيكون بذلك لزاما عليها تقفي المسالك، التي تتواجد فيها المياه سواء كانت مياه

٤٥- البرتلي رحلته، الورقة ٣/ظ

٤٦- فريديريك هورنمان، الطريق إلى فزان ، صص٧٠-٧٣.

٤٧- نفسه، الورقة ق٩/ظ

٤٨. نفسه ، الورقة ١٤/ و

٤٩ نفسه،الورقة ١٥ /و

٥٠البرتلي،رحلته ،١٩/ ظ

عيون منهمرة أو آباراً محتفرة أو تجمعات لمياه الأمطار في بطون الوديان، والتي عادة ما توفر أيضا الكلأ للابل. ومخطوط رحلة البرتلي تعرض بشيئ من التفصيل إلى هده المناهل والآبار، حيث اعتبرها هي التي على أساسها حددت الطريق، ورغم أن البرتلي حرمنا من تقفي أثر الرحلة في مرحلتها الأولى من ولاتة إلى أزواد، بسبب ماعلله بشهرتها عند أهل بلده فإنه فصل تفضيلا مهماً في مصادر المياه، التي مر بها الركب، خاصة فيما يتعلق بالعذوبة والملوحة ، فأول بئر ذكره هو بئر تنضير، وهو بئر خبيث الماء مالحه، وعلى بعد أربعة مراحل من توات يوجد بئر ولان، وهو بئر مشتهر إلى اليوم بعذوبة مائه، الذي تتزود منه القوافل المارة من ذلك الطريق، أما العين المائية الثانية، فهي عيون المرابط أبي الصلاح على الطريق من عين صالح إلى قرى فزان الليبية ومباهها شديدة العذوبة استغلها أهل الركب في غسل الأجساد والألبسة، ويظهر من خلال تتبع خط سير الرحلة أن الركب كان يقدم مسألة وجودد المياه على أمن الطريق، وهو الأمر الذي نجده في المرحلة التي قطع فيها الركب جبال الهروج، حيث اختار سلوك الهروج الأسود بدل الأبيض، رغم عدم توفر الأمن في الطريق لتوفر المياه الناتجة عن تجمع السيول، [٥١] وعند خروج الركب من قرية جالو دخل الركب وادي قطمير وماؤه قريب من سطح الأرض، حيث لا يلزم طالبه إلا حفر حفرة صغيرة فيخرج الماء والماء في هذا الوادي

ومن منابع المياه السواقي التي تزود منها الركب في قرية اتراغن، ومنها سواقي خنب وساقية عين التائب إلا إنها مالحة نوعا ما، لكن ملوحتها لا تضر بشاربها وعلى حواف هذه السواقي، تتوزع أشجار العنب واللوز والرمان وغيرها [٥٢]. ومن العيون المالحة التي صادفها الركب عين ولطن، وهي عين مالحة جدا، ورغم ملوحة مائها تزود منها الركب، لأنه لا ماء بينها وبين قرية وجلة، وشرب هذا الماء كان يصيب أهل الركب وإبله بالإسهال[٥٣]. ومن المناهل التي صادفها الركب، منهل الطرفاوي، الذي وصفه المؤلف أنه ثلاث عيون مالحة، وعليها بعض شجر العلندة، غير أن الركب وجد الرمال قد ضمرتها فحفرها أهل الركب تورد منها، وعلى مرحلة منه يوجد منهل الكيكيب، وماؤه مالح، غير أنه أقل من ملوحة ماء الطرفاوي، وعلى مرحلة أخرى منه يوجد منهل الغزالية، والتي سماها العياشي عين الغزال ،وماؤه عذب طيب[٥٤].

وعند الخروج من سيوة يصادف الركب عين ماء تسمى أجديد، وصفها المؤلف أن ماءها غير مالح لكن لونه أحمر غير شهي للشرب ، وقد تجاوزه الركب إلى منهل قريب يسمى تحبار والماء فيه حلو سائغ للشرب . ومن المناهل الأخرى المشهورة لدى الركاب، هي ماء اليهودية، وهي عين ماء مالحة جدا، يصاب شاربه بالإسهال ولا يزيل العطش، بل يزيد من شربه عطشا ،مما جعل أهل تلك البلاد يخلطونه بدقيق الشعير ليخفف الإسهال [٥٥].

---

٥١. نفسه ق٨/و

٥٢. نفسه، ق٨/و

٥٣نفسه،ق ٩/ظ

٥٤نفسه١٢/و .

٥٥. البرتلي،رحلته، ورقة ١٧ ظ

وماء اليهودية هو آخر منهل في الصحراء الليبية، حيث يستقبل الركب بعد المرور على كرداسة ماء قرية عجرود، وهو ماء غاية في الخبث،تحاشى الركب الشرب منه إلا أن السلطة العثمانية قامت بوضع سقايات على طريق الحج، وهي أحواض دائرية تملْ بالماء العذب، وتنقطع العيون من تلك الأحواض إلى السويس، حيث توجد عين النابع ومياهها عذبة، لكنها تحتاج إلى الحفر، ولا ظهار لأن الرمال تطمرها بفعل الرياح، ويضطر الركب لقطع مسافة طويلة في وادي التيه ليس بها ماء حتى الوصول إلى موضع النخيل وعنده قامت السلطة العثمانية بوضع أحواض كتلك الموجودة في عجرود لسقاية الحاج[٥٦].

ويستقبل الركب بعدها عقبة أيلة، وهي من أصعب مراحل الركب شواء على مستوى التضاريس، أو ندرة المياه إلى غاية الوصول إلى بندر العقبة، حيث يوجد حوض معد لجلب المياه العذبة مخصص للحجاج كسابقيه، لأن جل الآبار مالحة المياه لقربها من البحر، حتى يصل الركب إلى عيون القصب، وهي ثلث طريق مكة يصلونها اليوم الرابع من العقبة وماؤها طيب له جريان٥٧.

وعلى منتصف الطريق بين مصر ومكة ينزل الركب بعين ماء عذبة طيبة، هي عين المويلح،٢٠ وثم آبار السلطان، وهي آبار حديثة العهد في العصر العثماني، وصاحب الفضل في حفر هذه الآبار الأمير إبراهيم بك الفقاري، وأتم حفرها من بعده أخوه بوصية منه، وهى آبار عذبة الماء٥٨.، تعد من صور عناية السلط الحاكمة بتسهيل الطريق للحجاج.

خاتمة

تعد رحلة البرتلي من أهم مصادر دراسة طريق ركب الحج، وبصفة خاصة الطريق الذي يقطعه الركب الشنقيطي من ولاتة حاضرة الجنوب الموريتاني باتجاه الحرمين، وقد كان هذا الطريق في حكم الغامض، رغم ما يتميز به من الأهمية ضمن دروب ركب الحج المغاربي، من خلال الوصف الدقيق للمنازل التي جد المؤلف في ابرازها، حتى أن بعض الأماكن، والتي كان يضبط نطقها ورسمها من ألسنة أهالي البلاد، التي يمر بها في انتظار اكتشاف رحلات أخرى، قد تفصح لنا عن معلومات أخرى، قد تسهم في إيضاح هذا المسار، خاصة وأن رحلة البرتلي حرمتنا من مقطع مهم في طريق الركب، وهو الرابط بين المنطق ولاتة، ومنطقة أزواد حيث تحجج المؤلف بأن المسلك مألوف لدى أهل بلده، ورغم ذلك فنص الرحلة غني بتفاصيل مميزة عن طريق الركب الشنقيطي .

٥٦البرتلي ، رحلته، ورقة ١٩ ، اليهودية اسم يطلق على أرض سبخة وفيها مستنقعات مرة وملحة، وليس فيها مايدل على عمران، وقد مر بها العياشي في رحلته حيث قال: إن اليهودية هي إلا بناء خالتراكم وقد أشتهر لدى الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية في عسكرها كذا وكذا من الخيل، راجع: (معجم البلدان الليبية، ص١٣٥، وأيضا: العياشي، رحلته، الجزء ١٩٧/١).

٥٧. البرتلي،رحلته، الورقة ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٠٥ ؛ هامش رقم ٢ ؛العياشي، رحلته، الجزء٢٨٨/١-٢٨٩. ؛ الزياني، الترجمانة، ص ٢٢٢ ؛ العبدري، رحلته، ص ٣٤٢، الحضيكي، رحلته، ص ٩٥؛ محب الدين محمد المصري: منازل الحج المصري، ص٣٣ ؛ الجزيري : مصدر سابق، ص ١٧٧ ؛ معجم معالم الحجاز ج٦ / ٢٠٩، ج ٣/ ٩٦٥.

٥٨وهى عند العياشي والحضيكي دار أم السلطان، وماؤه لابأس به يقول عنها الزياني : ... هي لعرب البادية أوطان ونزلنا بوادي سلموكفة وحصل مؤيد الأمن بعد المخافة، وخلف جبلا الغربي البحر الأصيل وبجانبه القسطل البري منتظم كالنخيل وحفائر ماؤها عذب بارد، يشرب منه القادم والوارد العياشي، رحلته، الجزء٢٩٠/١. وأيضا: الزياني، الترجمانة، ص٢٢٢ ؛ الحضيكي، رحلته، ص ٩٥.التنلاني، رحلته، ص ٤٩٧.

مراجع البحث:

البرتلي،فتحالشكور،تحقيق: عبدالودودولدعبدالله،بيروت: دارنجيويه، ٢٠١٠.

الطالبالأمينبنالطالبالحبيبالحرشيت ١١٦٦هـ/١٧٥٣م :

فتحالشكور،النحوي،الخليل،بلادششنقيطالمنارةوالرباط،تونس: المنظمةالعربيةللتربيةوالثقافةوالعلوم، ١٩٨٧.

ابنحامد،المختار،حوادثالسنين،تحقيق : سيديأحمدولدمحمدسالم، ٢٧٨

حوتيةمحمدالصالح: آلكنتهدراسةتاريخيةمنخلالالوثائقالمحليةفيالقرنينالثانيعشروالثالثعشرللهجرةق١٨-١٩م،دارالكتابالعربي،الجزائر،ط١، ٢٠٠٨ م.

فريديريكهورنمان،الطريقإلىفزان.

معجمالبلدانالليبية،ص١٣٥،وأيضا: العياشي،رحلته،الجزء ١٩٧/١.

البرتلي،رحلته،الورقةابنتغريبردي : النجومالزاهرة،ج ٩،ص ١٠٥ ؛هامشرقم ٢ ؛العياشي،رحلته،الجزء٢٨٨/١-٢٨٩.

؛الزياني،الترجمانة،ص ٢٢٢ ؛العبدري،رحلته،الحضيكي،

محبالدينمحمدالمصري: منازلالحجالمصري،.